

الاحتفال بالاحتلال

أم بالاستقلال ١٢

د. محمد عمارة



الذي حاصر دعوته ، واضطهد المؤمنين بها ، بل واستفز هؤلاء المؤمنين ليخرجهم من وطنهم ، فقال ﷺ يناجي هذا الوطن - مكة - في لحظة الفراق ، يوم الهجرة : «والله إني أعلم أنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلى نفسي ، ولولا أن قومك أخرجونني منك ما خرجت»!..

ومع مطلع عصرنا الحديث ، ظهرت طلائع الأناشيد الوطنية ، التي نظمها علماء الإسلام ، فتحدثت عن فطرة الوطنية .. ومنها ما نظمه الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ) /

في «الوطنية» - كما في «الدين» - هناك أمور «معلومة بالضرورة» ، لا تختلف فيها ولا عليها بصائر ذوي التمييز من العقلاء .. ذلك لأن الوطنية الصحيحة ، مثلها كمثل التدين الصحيح فطرة فطر الله الناس عليها .. وعن الفطرة الدينية حدثنا القرآن الكريم عندما قال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) .. وعن فطرة الوطنية علمنا رسول - ﷺ - حبه لوطنه مكة حتى وهي على الشرك ،

(١) الروم : ٣٠ .

١٨٠١ - ١٨٧٣م) عندما قال :

من أصل الفطرة للفطن

بعد المولى حب الوطن

هبة من الوهاب بها

فالحمد لله الوهاب المنن^(١)

ومن فطرة الوطنية التي اتفق عليها العقلاء من كل الشعوب وجميع الحضارات ومختلف الديانات ، على مر الأزمان ، الفرح بالانتصارات الوطنية ، والاحتفال بها ، وإحياء ذكرياتها والحزن بالهزائم والانتكاسات ، والاعتبار بها ، والمسلمون لا يزالون يحتفلون حتى اليوم بانتصارات الدولة الإسلامية الأولى يوم بدر (٢هـ - ٦٢٤م) وبفتح مكة (٨هـ - ٦٣٠م) ، وبانتصارات القادسية (١٥هـ - ٦٣٦م) واليرموك (١٥هـ - ٦٣٦م) والاسكندرية (٢٠هـ - ٦٤١م) وحطين (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) وعين جالوت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) والقسطنطينية (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م) والعاشر من رمضان (١٣٩٣هـ - السادس من أكتوبر ١٩٧٣م).

فالاحتفالات الوطنية إنما تكون بالانتصارات لا بالهزائم والانتكاسات . وهذه الفطرة الوطنية السوية ليست

خصيصة إسلامية ولا شرقية .. وإنما هي فطرة إنسانية .. فالفرنسيون لا يزالون يحتفلون بتراجع مسلمي الأندلس في موقعة «بواتيه» - بلاط الشهداء - (١١٤هـ - ٧٣٢م) .. والنمساويون لا يزالون يحتفلون بتراجع الجيش العثماني عن أسوار «فيينا» (١٠٩٤هـ - ١٦٨٣م) .. بل لقد أقام الغرب الدورة الأولمبية - في برشلونة سنة ١٩٩٢م احتفالاً بانتصار الأسبان على المسلمين في الأندلس ، وإسقاط «غرناطة» (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) قبل خمسمائة عام!! ..

وكذلك الحال عند الصهاينة الذين بلغوا في الشذوذ عن الفطرة السوية حتى **«قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ»**^(٢) نراهم يكون على هدم المعبود - ولا يحتفلون به - وإنما يحتفلون بانتصارهم على العرب ، وإقامة دولتهم سنة ١٩٤٨م .. والهنود الذين تتلمذوا - بقيادة قديسهم غاندي (١٨٩٦ - ١٩٤٨م) - على الثورة المصرية التي قادها سعد زغلول (١٢٧٣-١٣٤٦هـ - ١٨٥٧-١٩٢٧م) في سنة ١٩١٩م .. لم يشذوا - رغم تقديسهم للبقرة - عن هذه الفطرة

(١) رفاة الطهطاوي : الأعمال الكاملة ، ج٥ ص ٢٧٨ ، دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة ، طبعة بيروت سند ١٩٨١م.

(٢) البقرة : ٩٣ .

الوطنية السورية ، فاحتفلوا عام ١٩٩٧ م بالعيد الخمسين للاستقلال عن بريطانيا ولم يحتفلوا بذكرى الاحتلال الإنجليزي لبلادهم رغم أنهم قد أخذوا عن هذا الاستعمار: اللغة .. والقومية .. والعلمانية .. والكثير من الآداب والفنون والعلوم .. بل لقد بلغوا - إبان احتفالاتهم بذكرى الاستقلال - إلى الحد الذي اشترطوا فيه على ملكة إنجلترا وهي تحضر احتفالاتهم أن تعتذر - رسمياً - لشعب مدينة «أمر ستار» المقدسة لديهم، عن المذبحة التي ارتكبتها الجيش الإنجليزي الاستعماري في هذه المدينة سنة ١٩١٩م، إذا أرادت الملكة أن تزور «أمر ستار» ..!

قمة الشذوذ :

لذلك .. يصبح الشذوذ عن هذه الفطرة الإنسانية في الوطنية شيئاً غريباً .. بل وشذوذاً غير مسبوق في تاريخ الوطنية بإطلاق .. وانقلاباً على السلوك الإنساني الذي تعارفت عليه وأجمعت القبائل والأمم والشعوب .. فلا أحد يحتفل بذكرى اقتحام اللص لمنزله ، أو اغتصاب أرضه ، أو انتهاك عرضه ، أو سلب سيادته على وطنه .. اللهم إلا هذا النفر من شواذ المثقفين الفرانكوفونيين

بمصر الذين ساروا في الركب الفرنسي، وقرروا الاحتفال - على امتداد عامين - بمائتي عام على حملة نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) !. محاولين ستر هذا العوار والشذوذ بادعائهم أنهم إنما يحتفلون بالعلاقات الثقافية مع فرنسا، وليس بالغزوة الاستعمارية .. يحتفلون بالمطبعة والمجمع العلمي وليس بالمدفع والبارود ! .. ولو صدقوا في هذا الادعاء لكان احتفالهم مبادرة ذاتية منهم ، بدلاً من أن يأتي استجابة ذليلة لأحفاد الغازي نابليون .. ولو كان لادعائهم ظل من الحقيقة لجعلوا هذا الاحتفال في ذكرى الجلاء الفرنسي عن مصر سنة ١٨٠١م، - كما صنع ويصنع كل البشر- حتى الذين أشربوا في قلوبهم العجل ، والذين يقدسون البقر ! - أو لجعلوا الاحتفال في ذكرى فك العالم الفرنسي «شامليون» (١٧٩٠-١٨٣٢م) الرموز اللغوية في «حجر رشيد» (١٢٤٢هـ - ١٨٢٧م) .. أو مثل هذه المناسبات الثقافية «الفرنسية - المصرية» ، بدلاً من أن يجعلوا شهر يوليو المناسبات الثقافية «الفرنسية - المصرية» ، وهو شهر بداية الاحتلال الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨م - بداية لهذه

لمصر ووطن العروبة وعالم الإسلام أقدم موجات الاستعمار الأوربي ، وليس فقط أقسى وأخطر وأسوأ هذه الموجات!..

فحملات الغزوات الصليبية - التي استمرت على بلادنا العربية قرنين من الزمان (٤٨٩-٦٩٠هـ) / ١٠٩٦-١٢٩١م) والتي مثلت - بما أقامت في بلادنا من استعمار استيطاني ، وممالك وإمارات وقلاع وحصون ، وتهديد لمقدسات الإسلام في الحرمين المكي والنبوي ، فضلاً عن اغتصاب الأقصى وتحويله إلى كنيسة ، واحتلال القدس الشريف .. الخ - هذه الحملات الصليبية بدأت مشروعاً استعمارياً فرنسياً!..

فمن جنوبي فرنسا - بمدينة «كليرمونت» - بدأت هذه الغزوة ، عندما دعا البابا الذهبي «أربان الثاني» (١٠٨٨-١٠٩٩م) أمراء الإقطاع وفرسانهم ، وخطب فيهم - داعياً إلى أن يتخذوا الإسلام والشرق عدواً ، يوجهون إليهما طاقاتهم وغرائزهم العدوانية ، بدلاً من توجيهها في صراعاتهم الداخلية !! - فقال لهم :

«أنتم فرسان أقياء ، ولكنكم تنناطحون وتتنابذون فيما بينكم -

الاحتفالات التي أرادها الفرنسيون - ومعهم شواذ فرانكوفونيين المصريين - لمدة عامين ، التي هي مدة الاحتلال !!.. بل إن شذوذ هذه الاحتفالات - والقائمين بها - عن «المعلوم من الوطنية بالضرورة» ليتزايد إذا نحن علمنا أن هذا الاستعمار الفرنسي - الذي يحتفلون به - ليس استعماراً عادياً كسواه من ألوان البلاء الاستعماري الذي ابتليت به كثير من الشعوب ، وإنما هو قمة البلاء الاستعماري ؛ لأن الاستعمار الفرنسي على وجه الخصوص لم يكتف - عادة - بما اكتفى به كثير من المستعمرين ، من احتلال الأرض ، ونهب الثروة ، وسلب الحرية ، وإذلال الكرامة .. وإنما تجاوز المستعمرون الفرنسيون - عادة - هذه المقاصد الاستعمارية إلى حيث ذهبوا لمحو الهوية الدينية واللغوية للشعوب التي ابتليت باستعمارهم ، فتعدى استعمارهم نطاق «الإمبريالية» إلى نطاق القتل والإبادة لتمييز الشعوب المستعمرة عن فرنسا .. لقد أرادوه قهراً ومحوراً «للذات» ، وليس فقط اغتصاباً «للمكانات»!..

بل لقد يدهش الذين لا يقرأون صفحات التاريخ القديم إذا هم علموا أن الاستعمار الفرنسي قد مثل بالنسبة

كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر
دماء الشرقيين»^(٢)!..

وبكلمات شاهد عيان - في مصدر
نصراني- : «فلقد استوعب المسجد من
الدم المحتقن فيه كفي بحر متموج»^(٣)!..

ومن بين الحملات الصليبية التي
انطلقت من فرنسا بقيادة أمرائها
وملوكتها - تميزت حملات وحروب

الملك - القديس - لويس التاسع
(١٢١٤-١٢٧٠م) .. وكان لويس
التاسع هو مكتشف المنهاج الذي سار

عليه نابليون بحملته على مصر!..
المنهاج الذي يرى أن مصر هي بوابة
الشرق ، وطريق القدس الشريف ..

فاحتلال مصر هو الشرط لاستعادة
القدس - التي سبق أن حررها من
الاستعمار الصليبي صلاح الدين

الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ) /
١١٣٧-١١٩٣م) - ولقد عبّر
المؤرخ «ابن واصل»

(٦٠٤-٦٩٧هـ — ١٢٠٨-١٢٩٨م) في
كتابه (مفرج الكروب في أخبار بني
أيوب) عن هذا المنهاج الذي سلكه

ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار - (أي
المسلمين) !! - يا من تنابذتم اتحدوا .. يا
من كنتم لصوصاً كونوا الآن جنوداً ..
تقدموا إلى بيت المقدس .. انتزعوا تلك
الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم،
فهي تدر سمناً وعسلأ ! إنكم إذا انتصرتم
على عدوكم ورثتم ممالك الشرق»^(١)!..
فمن فرنسا بدأ أول مشروع أوربي
لتوحيد حتى اللصوص لمواجهة الإسلام
والمسلمين ، ووراثه ممالك الشرق التي
«تدر سمنأ وعسلأ»!..

وعندما اقتحمت هذه الغزوة - التي
انطلقت من فرنسا - مدينة القدس
(٤٩٢هـ - ١٠٩٩م) أبادت من بها من
المسلمين ، حتى الذين احتموا ببيوت
الله، سفكوا دماءهم ، حتى لقد
سبحت خيول الصليبيين بدماء الأبرياء
في مسجد عمر بن الخطاب - مسجد قبة
الصخرة - .. وكتب هؤلاء البرابرة
- أجداد نابليون بونابرت - إلى البابا
الذهبي - في فرنسا - يفاخرون بما صنعوا،
فقالوا : «إذا أردت أن تعرف ما يجري
لأعدائنا ، فثق أنه - في جامع عمر -

(١) د. محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ٣٥ طبعة دمشق سنة ١٩٨١م.

(٢) المرجع السابق : ص ٣٩.

(٣) مكسيموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب) ج ١، ص ٢٨٢، طبعة القدس سنة ١٨٦٥م.

لويس التاسع .. ومن بعده نابليون - فقال عن القديس لويس : «إنه كان متديناً بدين النصرانية ، مرتبطاً به .. فحدثته نفسه أن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج .. وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية»^(١)!

وعندما نقرأ الإنذار الذي وجهه القديس لويس التاسع إلى الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (٦٠٣-٦٤٧هـ / ١٢٠٦-١٢٤٩م) نجد الحقائق الكاشفة عن دور فرنسا في ذلك الصراع .. فهو يتحدث عن نفسه باعتباره ممثل النصرانية الغربية «أمين الأمة العيسوية» .. ويكشف عن دور فرنسا في الصراع ضد الإسلام ، لا في الشرق فحسب ، وإنما في الأندلس أيضاً، فيقول : «.. وإن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا . ونحن نسوقهم سوق البقر! ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيهن، ونخلي منهم الديار»^(٢)!! .. فحرب فرنسا ضد الإسلام كانت قائمة شاملة في المشرق والمغرب على السواء..

وإذا كانت حملة القديس لويس التاسع قد انكسرت على أرض المنصورة بدلتنا نيل مصر .. بل ووقع «أمين الأمة العيسوية» أسيراً (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) .. فإن عهد هذا الملك وسنوات حملته الصليبية قد شهدت زيادة الاستعمار الفرنسي لبواكير الأحلاف غير المقدسة بين الاستعمار الغربي وبين الوثنية - حتى الوثنية - إذا كانت المواجهة مع الإسلام والمسلمين.. فعلى درب «يهود خير» - الذين تحالفوا مع مشركي مكة - عبدة الأوثان - ضد التوحيد الإسلامي ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾^(٣).. على درب يهود خير سارت فرنسا ، ممثلة في البابا «إينوسنت الرابع» (١٢٤٣-١٢٥٤م) وفي القديس لويس التاسع ، عندما سعى البابا إلى التحالف مع المغول الوثنيين ضد الإسلام والمسلمين ، فأرسل (٦٤٣هـ - ١٢٤٥م) إلى بلاط خاقان المغول - في

(١) (معارك العرب ضد الغزاة) ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٩ .

(٣) النساء : ٥١ ، ٥٢ .

«قراقورم» - بعثة رأسها أحد رجالاته -
«جون ده بياني كابريني» - لإقناع المغول
- الذين كانوا يفكرون بغزو أوروبا -
بالتحالف مع الصليبيين ، وتوجيه
غزوتهم المدمرة إلى عالم الإسلام !..

وتواصلت المفاوضات بين الطرفين
سنة ١٢٥٢م - أي حتى بعد هزيمة حملة
لويس التاسع على مصر - حتى تم
التحالف اللامبدئي .. فزحف المغول
على بغداد فدمروها (٦٥٦هـ -
١٢٥٨م) ثم دمروا بلاد المشرق ،
وهددوا الوجود الإسلامي في جملته ،
لولا أن قبض الله لمصر هزيمتهم في
«عين جالوت» (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) ..
بل إن هزيمة لويس التاسع في مصر لم
تنه أحلامه الصليبية الاستعمارية ،
فذهب على رأس حملة صليبية أخرى
لغزو تونس ، حيث هزم وقضى نجبه
هناك (٦٦٩هـ - ١٢٧٠م) ..

وبعد نجاح البرتغاليين - عقب سقوط
غرناطة - في الالتفاف حول العالم
الإسلامي - أواخر القرن الخامس عشر
وأوائل القرن السادس عشر .. وعندما
بدأت أوروبا تفكر في ضرب قلب العالم
الإسلامي - مصر والوطن العربي - لم
تجد أوروبا - يومئذ - أفضل من فرنسا

لتقود وتبدأ هذا الإنجاز الاستعماري .
فالفيلسوف الألماني «ليبنتز»
(١٦٤٦-١٧١٦م) عندما كتب كتابه
الذي وصف فيه واقع مصر الاقتصادي
والعسكري والاجتماعي والديني -
١٦٧٢م ليغري أوروبا باستعمار مصر -
وسمى هذا الكتاب (المخطوط السري
لغزو مصر) - لم يجد هذا الفيلسوف مُنفذاً
لمشروعه الاستعماري أفضل من ملك
فرنسا لويس الرابع عشر (١٦٣٨ -
١٧١٥م) .. فقدمه إليه - رغم ما كان
يومئذ بين ألمانيا وفرنسا من تناقضات
ومحاربات ؛ لأن الجميع - في مواجهة
الإسلام والمسلمين - هم على قلب رجل
واحد .. كل النصرانية الغربية .. وجميع
المذاهب النصرانية .. وسائر القوميات
الأوربية .. بل وحتى التحالف مع
الوثنية المغولية البربرية .. كل ذلك وارد
و«مشروع» في مواجهة الإسلام ..

ولقد كان هذا (المخطوط السري
لغزو مصر) دليل نابليون بونابرت
(١٧٦٩ - ١٨٢١م) وحملته الفرنسية
على مصر .. بل وما كان كتاب
(وصف مصر) - الذي وضعه علماء هذه
الحملة الفرنسية - إلا الصورة المتطورة
لهذا المخطوط .. فالمقصد والمراد هو

وصف الواقع لاحتلاله ونهب ثرواته ،
ودراسة عقل الأمة وفكريتها وعاداتها
وتقاليدها وأعرافها وموارثها ؛ لتدبير
كيفية التعامل معها ، ليتأيد ويتأبد هذا
الاحتلال ..!

حملة نابليون على مصر :

وإذا كانت مهمة هذه الصفحات
ليست حكاية وقائع الاحتلال العسكري
الفرنسي لأرض مصر .. الذي قام
الفرنسيون - لتحقيقه - بقتل ثلث مليون
مصري - في وقت كان تعداد مصر لا
يتجاوز (٤٦٠,٠٠٠, ٢ نسمة) ..

أي أنهم قد ضربوا رقماً قياسياً في
«الإبادة» عندما قتلوا ١/٧ الشعب
المصري ، في مدة لا تتجاوز السنوات
الثلاث !! وهدموا وأحرقوا الكثير من
القرى - التي ثارت جميعها ضد جيش
الاحتلال - والعديد من أحياء المدن التي
تنافست في المقاومة للغزاة .. حتى لقد
كان للعميان - في الأزهر الشريف -
نورتهم الخاصة ، والتي قدموا فيها وفي
أعقابها العديد من الشهداء ! .. الأمر
الذي جعل بونايرت - وهو الذي دوّخ
أوروبا - يهرب من مصر بليل .. وجعل
خليفته الجنرال «كليبر» (١٧٥٣ -
١٨٠٠م) يلقي مصرعه بمصر .. أما

ثالثهم - الذي خلف «كليبر» - وهو
الجنرال «مينو»
١٧٥٠-١٨١٠م) - فلقد اضطّر
للاحتماء بالإسلام ، فأعلن إسلامه
وسمى نفسه «عبدالله» وتزوج مصرية
من مدينة «رشيد» ! .. لتضطر هذه
الحملة - التي جاءت لتحقيق أحلام
الاسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)
والقديس لويس التاسع .. ولويس الرابع
عشر .. وبابوات فرنسا .. «والأمة
العيسوية» الغريبة .. تضطر إلى الرحيل
عن مصر (١٢١٦هـ - ١٨٠١م) ..

ليست مهمة هذه الصفحات حكاية
الوقائع التي اشتهرت في كتب
التاريخ .. بقدر ما تطمح إلى لفت الأنظار
إلى الجوانب الفكرية والحضارية التي
قصدت إليها هذه الحملة ، ليعرف من
لا يعرف أن جوانب الفكر في هذه
الحملة الاستعمارية كانت في خدمة
المدفع والبارود .. بل ربما كانت أخطر
من المدفع والبارود ..!

إننا نشكو اليوم - على النطاق العربي
والإسلامي - من اختراق الغرب لأمننا
الوطني والقومي والحضاري من خلال
نغرات الأقليات - الدينية والقومية -
ومحاولاته تحويل هذه الأقليات إلى أوراق

ضغط على الحكومات الوطنية ، وإلى عقبات أمام مشاريع التغيير والنهوض - القومية منها والإسلامية بل والوطنية أحياناً - .. ولقد كانت لنابليون وحملته الفرنسية الريادة في هذا الاحتراق !..

لقد أعلن بوناپرت - وهو في طريقه إلى غزو مصر - عن نيته تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات في الشرق للاستعانة بهم كقبضة ضاربة ، وقفاز محلي ، ومواطني أقدام حملته الاستعمارية وحلمه الأمبراطوري .. وبعد احتلاله لمصر ، بدأ التنفيذ لهذا المخطط الخطير والكريه .. فأغرى نقرأ من «أراذل النصارى» من الأقباط والطوائف الأخرى .. وخاصة أتباع المذاهب النصرانية الغربية بالخروج على إجماع الأمة - المسلمين منها والنصارى - فكونوا «فيلقاً قبطياً» التحق بجيش الحملة الفرنسية ، وحارب الشعب المصري مع قوات الاحتلال .. وقاد هذا الفيلق «المعلم يعقوب حنا» (١١٥٨-١٢١٦هـ / ١٧٤٥-١٨٠١م) - وهو الذي سماه الجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ / ١٧٥٤-١٨٢٢م) «يعقوب

اللعين»! .. وفيلقاً ثانياً من النصارى الأروام ، قاده «برطلمين يني الرومي» الذي اشتهر لدى العامة بـ «فرط الرمان»!.

وكما يقول الجبرتي - مؤرخ العصر وحجته - فإن فيلق المعلم يعقوب قد ضم من شباب القبط بالصعيد نحو الألفين .. وشارك هذا الفيلق مع الجيش الفرنسي - الذي قاده «ديزيه» - في «فتح صعيد مصر»!.. وتدرج المعلم يعقوب في مراتب الجيش الفرنسي ، فمُنحه «كليير» رتبة «كولونيل» ، وأنعم عليه «مينو» برتبة «جنرال» في مارس سنة ١٨٠١م^(١).

فكان هذا أول احتراق استعماري غربي لصفوف الوحدة الوطنية المصرية! ولقد تم على يد حملة نابليون .. وفي «ديوان المشورة» - الذي أقامه «بوناپرت» - جعل هذه الأقليات غير المسلمة - والتي لا تتعدى نسبتها العددية لمجموع السكان ٥% - نصف عضوية الديوان العام والخاص - خمسة من علماء الأزهر ، واثنان من التجار المسلمين ، وسبعة من الأقليات النصرانية - وعندما

(١) د. محمد عمارة ، ص ١٢١.

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج ٥ ص ١٤٨ ، ١٤٩. تحقيق : حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، السيد إبراهيم سالم . - طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٥م.

يضاف إليهم الأعضاء الفرنسيون يصبح المسلمون أقلية ضئيلة العدد والتأثير في هذا الديوان^(١) .. فالهدف لم يكن تدريب الشعب على حكم نفسه - كما يزييف المتغربون - وإنما إذلال الأمة بتحكم الأقلية الخائنة في مصائرنا ..!

أما الجهاز المالي والإداري - أي الحكومة والسلطة التنفيذية - فلقد اختص بها الفرنسيون هذه الأقليات التي أصبحت سياتماً يلهب بها الفرنسيون ظهور المصريين !

ولم يقف الأمر عند حدود توظيف هذا الاختراق لخدمة المقاصد السياسية والمالية والإدارية .. وإنما تعداه إلى توظيف هذه الشريحة - من «أراذل القبط» - كما سماهم الجبرتي - لاستفزاز عقيدة الأمة، والعدوان على إسلامها ..! فعلى النقيض من محاولات خديعة المسلمين بادعاء «إسلام بونابرت»، ومجئ جيشه لنصرة سلطان المسلمين ضد المماليك ..! رأينا الجنرال «كليبر» - كما يقول الجبرتي - يعهد إلى المعلم يعقوب حنا «بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء»^(٢)!

.. حتى «تطاولت النصارى - من القبط ونصارى الشوام - على المسلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصالح مكاناً؟! وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»^(٣) .. فشق الوحدة الوطنية بلغت به الحملة الفرنسية حد استفزاز وتهديد حتى عقيدة الإسلام في مصر .

بل إن هذا الاختراق الذي أحدثته الحملة الفرنسية للوحدة الوطنية المصرية، لم تنقض آثاره بهزيمة هذه الحملة ، وجلاء جيشها عن مصر (١٢١٦هـ - ١٨٠١م) وتسريح «الفيلق القبطي» .. ذلك أن هذه الشريحة من «أراذل القبط» - كانت بمثابة طليعة تيار «التغريب» ، والاستلاب الحضاري ، والانفصال - الذي سموه «الاستقلال» - عن ماضي مصر وتراثها وهويتها الإسلامية ، وعن محيطها العربي والإسلامي ... «الاستقلال» عن الذات الحضارية ، والإلحاق والالتحاق والتبعية للنموذج الغربي ، الذي جاء به

(١) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٤ .

(٢) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ١٣٦ .

الفرنسيون الغزاة ..

وإذا كان المعلم يعقوب اللعين ، قد غادر مصر - هو وأعوانه - في ركاب الحملة الفرنسية المنهزمة ، وعلى ذات السفن التي أقلت جنود هذه الحملة .. فإن خيبة هذه الحملة البونابرتية ، لم تجعل آمال المعلم يعقوب تخيب في أوربا!.. فتوجه «بوصيته» - التي كتبها في مرض موته ، على ظهر السفينة التي أقلته من مصر - توجه إلى إنجلترا ؛ لتحل محل فرنسا ، ولتسعى للسيطرة على مصر ، وإلحاقها بأوربا بدلاً من الأمبراطورية العثمانية - فكتب في وصيته عن هذا المشروع يقول :

«توشك الأمبراطورية العثمانية على الانهيار ؛ ولذا فيهمم الإنجليز ، قبل أن تقع الواقعة ، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه ، فيحققوا مصالحهم السياسية .

وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر - كما استحال ذلك من قبل على فرنسا - فيكفي أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا ، صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها .. إن بريطانيا لها

من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ، ويضمن لها بالتالي أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها .. إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا .. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر .. وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعي الأمة ، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبري تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء!.. وللدفاع عن هذا الاستقلال.. فإن المصريين يمكنهم الاعتماد على قوات أجنبية تعمل لحسابهم ، يتراوح عددها بين ١٢,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ جندي ، يكفون تماماً لصد الترك عن الصحراء ، ولسحق المماليك داخل مصر.. إن أي حكومة في العالم أفضل من الاستبداد التركي»^(١)

فالوصية اليعقوبية ، هي باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية ، وماضيها وحاضرها الإسلامي ، ومحيطها القومي والحضاري ، وإخضاعها لنفوذ إنجلترا ، لتكون موالية لبريطانيا ، التي تستأثر بتجارتها الخارجية .. هذا «الاستقلال» تفرضه القوات الأجنبية على المصريين «المسلمين الجهلاء» ! .. كما قال المعلم

(١) د. أحمد حسين الصاوي (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٣ - ١٢٥ - ملحق رقم ٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

يعقوب اللعين ! ..

هكذا تخلّقت - على يد الحملة الفرنسية - بواكير الخيانة والاختراق للأمن الوطني والقومي والحضاري ، من خلال ثغرة «الأقليات» .. ولا نزال نعاني من هذا «الإنجاز» الفرنسي حتى الآن .. بل إن موكب الاحتفال الحالي بحملة بونايرت إنما يشي بالامتدادات السرطانية لآثار وأفكار يعقوب اللعين !! ..

وإذا كنا نشكو من اختراق القانون الغربي لمناطق سيادة الشريعة الإسلامية .. منذ تسلل هذا القانون - في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - إلى «المحاكم القنصلية» .. ثم «المحاكم المختلطة» (١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م) .. ثم عموم بلوآه في القضاء الأهلي على يد الاستعمار الإنجليزي - وفي ظل سلطان اللورد «كرومر» (١٨٤١ - ١٩١٧م) منذ (١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م) .. فإن بواكير هذا الاختراق الذي زاحم شريعتنا وفقهنا الوطني ، حتى أجلاهما عن أغلب ميادين التشريع والقضاء في بلادنا الإسلامية .. إن بواكير هذا الاختراق قد كانت من آثار الحملة الفرنسية على مصر ..

فبعد هزيمة جيش الحملة ، وجلائه عن مصر .. وبعد موت المعلم يعقوب اللعين - على ظهر السفينة التي أفلته مع جيش الحملة الفرنسية إلى مرسيليا - توجه رفقاء المعلم يعقوب - بقيادة «غمر أفندي» - باسم «الوفد المصري» ! - توجهوا إلى مرسيليا .. وكتبوا إلى بونايرت ، يعرضون عليه العمل على إحلال القانون الفرنسي محل الشريعة الإسلامية في مصر .. فبعد حديثهم عن الولاء لبونايرت تعهدوا «بالتشريع لمصر التشريعات التي ترضى عنها فرنسا» !! معلنين بذلك ولادة التوجه الفكري - الذي نراه الآن - الداعي إلى إلحاق مصر بأوروبا في النظم والتشريعات .. فقالوا لبونايرت : «إن الوفد المصري الذي فوّضه المصريون الباقون على ولائهم لك ، سيشرّع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا»^(١) ..!

وإذا كنا نشكو اليوم من الاختراق الديني الذي تقوم به الكنائس الغربية العاملة في خدمة المخططات الاستعمارية في قلب إفريقيا .. ومن استغلالها للمشكلات الاجتماعية ، والمنازعات القبلية ، والكوارث الطبيعية - بل وصنعها لكل ذلك - حتى يفقد الناس

(١) المصدر السابق : ص ١٢٩ ، ١٣٠ - ملحق رقم ٧ .

توازنهم ، فيتم تحويلهم عن دياناتهم ومذاهبهم إلى النصرانية الغربية - إذا كنا نشكو اليوم من هذا الاختراق النصراني الغربي للقارة الإفريقية - حتى لقد رفعوا شعاراً يقول : إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م ! فإن بواكير هذا الاختراق هي صناعة فرنسية أيضاً ! ..

فلقد كان إلحاق الكنيسة الأثيوبية - وهي أرثوذكسية - بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية - أحد أحلام لويس الرابع عشر (١٦٣٨-١٧١٥م) - أراد تحقيقه بواسطة بعض الأقباط المصريين - أي عن طريق اختراق الكنيسة المصرية - .. فلما فشل في تحقيقه .. رأينا أتباع المعلم يعقوب اللعين يكتبون إلى وزير الخارجية الفرنسي «تاليران» (١٧٥٤-١٨٣٨م) يتعهدون بالعمل على تحقيق ما لم يستطع تحقيقه لويس الرابع عشر ! فيقولون : «لقد كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر على ضم كنيسة أثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) . ولكنه كان يسعى في الحقيقة لمد نفوذه السياسي نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود - لم يقدر لها النجاح - لكي يتعلم في فرنسا

عدد من شباب القبط المصريين ؛ لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة الأثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق في مساعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية ، التي ستكون موالية لها ، مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا .. وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية»..!!^(١)

فهل بهذه الاختراقات التي صنعها بونابرت وحملته الفرنسية ، يحتفل الفرانكوفونيون ؟!

وإذا قالوا : إنهم يحتفلون «بالفكر» .. والثقافة» ، لا بالمدفع والبارود .. ففي أية خانة نضع اختراق الوحدة الوطنية .. وبلورة تيار الإلحاق الحضاري لبلادنا بأوروبا .. واستبدال التشريع الفرنسي بقانون نابليون - بالشريعة الإسلامية .. وتحويل هوية الأمة - مسلميها ونصارها - نحو الغرب والتغريب .. واختراق الكنيسة المصرية ؛ للوصول عبرها إلى قلب إفريقيا ..

في أية خانة نضع هذه «الإنجازات» البونابرتية ، إذا لم نضعها في خانة «الفكر .. والثقافة» ؟! لقد انكشفت

(١) المصدر السابق : ص ١٣١، ١٣٢ - ملحق رقم ٨ - وتاريخ هذه المذكرة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١م، ١٥ جمادى الأولى ١٢١٦هـ .

أرض فلسطين !.

أي أن هذا الذي تشقى به ومنه أمتنا العربية والإسلامية - الكيان الصهيوني المزروع قسراً في فلسطين ، والذي يسعى للتدند على الأرض ما بين النيل والفرات - بإقامة إسرائيل الكبرى - وإلى الهيمنة حتى على ما وراء النيل والفرات - بإقامة العلو الإسرائيلي في إسرائيل العظمى - .. إن هذا الذي تشقى به ومنه أمتنا إنما بدأ مشروعاً فرنسياً ، وارتاد ميدان الدعوة إليه بونابرت إبان الحملة الفرنسية على مصر والشام..

ففي (١٧٩٩م) ، وأثناء حصار بونابرت لمدينة «عكا» ، أصدر نابليون نداءه الشهير إلى الطوائف اليهودية - وهي التي نعمت تاريخياً في الحضارة الإسلامية بما لم تحلم به في حضارة أخرى - أصدر نداءه إلى هذه الطوائف ، داعياً إياها كي تتحالف مع جيشه الغازي ومشروعه الاستعماري ؛ لتقوم بدور «ثغرة الاختراق» و«موطن القدم» و«قفاز القبضة الاستعمارية الغربية» ، وذلك مقابل تمكينهم من أرض فلسطين..

كان بونابرت قد احتل مصر .. وطمح فيما سبق وطمع فيه القديس

الوجه .. بل وشاهت هذه الوجوه !
ويزيد الطين بلة .. أن سجل العار لحملة بونابرت الفرنسية لم يقف عند هذا الحد الذي صنعت به بمصر - والذي اكتفينا في الحديث عنه بإشارات إلى المناطق والميادين غير المطروقة وغير المشهورة ، والتي قد يجادل فيها عبيد الفرنكوفونية ، الذين يحتفلون - في ذكرى الاحتلال - بما يرونه «إنجازات إيجابية» لحملة نابليون .. لم يقف سجل هذا العار - الذي به يحتفلون - عند الاختراق لأمن مصر الوطني والديني والفكري والثقافي وإنما تعداه إلى اختراق الأمن القومي العربي أيضاً .

خلق المشروع الصهيوني :

فكما سعت الحملة الفرنسية إلى اختراق الأمن الوطني المصري ، بتحويل نصارى مصر إلى ثغرة اختراق - بدلاً من أن يكونوا لبنة في جدار هذا الأمن الوطني - سعت كذلك إلى تحويل الأقليات اليهودية - في مختلف أنحاء العالم - إلى ثغرة اختراق للأمن القومي العربي ، ودعوتهم إلى مشاركة فرنسا في إقامة امبراطوريتها الاستعمارية في الشرق ، مقابل اتخاذهم مواطني أقدام لهذا المشروع الاستعماري الغربي على

بهذا النداء البونابرتي ، وذلك
«الإنجاز» الذي بدأته الحملة البونابرتية
بدأت خيوط المأساة التي تعيشها أمتنا
العربية والإسلامية .. مأساة اختراق أمن
الأمة ، واستنزاف طاقاتها ، وقطع
وحدة وطن العروبة ودار الإسلام ،
وضرب مشاريع التقدم والتحرر ،
والنهوض بالصهيونية وكيانها الإسرائيلي
الاستعماري على أرض فلسطين ..

فالحملة الفرنسية على مصر كانت
البداية .. وبونابرت كان الرائد
للصهيونية الحديثة ، التي وظفت
الأقليات اليهودية في المشروع
الاستعماري الغربي - منذ مائتي عام - ..
وبعد ذلك تابعت القوى الاستعمارية
الغربية السير وراء نابليون وفرنسا ..
إنجلترا إبان قيادتها للمد الاستعماري
الغربي على الشرق .. ثم أمريكا التي
ورثت نفوذ إمبراطوريات الاستعمار
القديم وهيمنت في وطن العروبة وعالم
الإسلام ..

فهل يستحق هذا «الإنجاز»
الفرنسي، وهذه «الريادة البونابرتية»
احتفال الفرنكوفونيين؟! .
أم تقول لهم - مرة أخرى - : شامت

لويس التاسع : «أن يستعيد بيت المقدس
إلى الفرنج عن طريق امتلاك الديار
المصرية»! فأراد أن يستعين على تحقيق
ذلك باستخدام ورقة الأقليات اليهودية ،
وتراثها الأسطوري حول القدس
وفلسطين .. فوجه إليها نداءه ، الذي
قال فيه : «من نابليون بونابرت القائد
الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية
الفرنسية في إفريقيا وآسيا . إلى ورثة
فلسطين الشرعيين :

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب
الفريد .. انهضوا بقوة ، أيها المشردون
في التيه .. لا بد من نسيان ذلك العار
الذي أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك
الخزي الذي شل إرادتكم لألفي سنة ..
إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة
إرث إسرائيل .. إن الجيش الذي
أرسلتني العناية الإلهية به .. قد اختار
القدس مقرا لقيادته ، وخلال بضعة أيام
سينتقل إلى دمشق المجاورة ، التي
استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها ..

ياورثة فلسطين الشرعيين : إن
الأمة الفرنسية .. تدعوكم إلى
إرثكم بضمائها وتأييدها ضد كل
الدخلاء»^(١)!.

(١) محمد حسنين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) - الكتاب الأول -
ص ٣١، ٣٢ طبعة القاهرة ١٩٩٦ م.

الوجوه ؟!

خلق المارونية السياسية والتغريب الثقافي :

وعلى ذات الدرب .. درب الاختراق الفرنسي للأمن القومي العربي والحمى الحضاري الإسلامي .. تواصلت جهود الاستعمار الفرنسي ..

فالقديس لويس التاسع (١٢١٤- ١٢٧٠م) الذي حلم - قبل نابليون - بامتلاك بيت المقدس عن طريق احتلال مصر ، هو الذي بدأ الإمساك بخيط «شراكة - العمالة» مع نفر من «الأقلية المارونية» منذ (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) ! فعندما لقيهم في الشام ، قال : «نحن مقتنعون بأن هذه الأمة «الجماعة» التي تعرف باسم القديس «مارون» هي جزء من الأمة الفرنسية»^(١) !! .

وعلى درب لويس التاسع تواصلت خطوات الاختراق الفرنسي لأمننا القومي ، باستخدام قطاعات من الأقلية المارونية - الكاثوليكية كفرنسا - حتى وصل الاختراق حد رفع شعار : «أمننا فرنسًا» من قبل قطاع مؤثر من المارونيين ! ..

ولقد كان لمدارس التبشير

والإرساليات الفرنسية الدور الأكبر في هذا «الإنجاز الفرنسي» - حتى قبل الإسهام الاستعماري المباشر من خلال معاهدة «سيكس - بيكو» (١٣٣٣هـ ١٩١٥م) لتقسيم الولايات العربية العثمانية بين إنجلترا وفرنسا .. والاحتلال الفرنسي المباشر للشام إبان الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ..

فمدارس البعثة اليسوعية في لبنان - في القرن التاسع عشر - قد اعتبرت التعليم الذي تقدمه لأبناء الطائفة المارونية أساساً «فتحا بواسطة اللغة» ! .. والقنصل الفرنسي هناك يعتبره «سيطرة على الشعب ، تخلق جيشاً مارونيا يتفاني في خدمة فرنسا» ! .. أما «بول موفلان» Paul Muvelin - أحد كبار اليسوعيين - فيكتب قائلاً : «إن تعليم الناس لغتنا (الفرنسية) لا يعني مجرد أن تألف ألسنتهم وآذانهم الصوت الفرنسي ، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف الفرنسية حتى نجعلهم فرنسيين من زاوية ما .. إن هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بواسطة اللغة» !

وفي مذكرة كتبها القنصل الفرنسي

(١) عماد السمك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٧٤ - وهو ينقل عن (وثائق الباب العالي) المجلد الثالث ، ص ١٠٠ .

هاجر إلى مصر عدد من خريجي هذه المدارس الفرنسية ، فأصدروا بمصر صحفاً ومجلات ، وأقاموا دوراً للنشر والثقافة ، تحول الكثير منها إلى منابر للتغريب والعلمانية والتشكيك في العقائد الدينية ، ومحاولات استبدال العمايات العربية الفصحى .. أي تفكيك وتوهين مكونات الهوية الحضارية لأمتنا ..

وفي هذا الميدان عمل مثقفون وصحفيون موارنة من أمثال أمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ / ١٨٢٨ - ١٨٩٧م) - أول دعاة استبدال العامية بالفصحى - وشبلى شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ - ١٨٦٠ - ١٩١٧م) المبشر بالإلحاد عن طريق الداروينية والفلسفة الوضعية والمادية .. وفرح أنطون (١٢٩١ - ١٣٤٠هـ / ١٨٧٤ - ١٩٢٢م) داعية العلمانية ، والمفسر لفلسفة ابن رشد (٥٢٠ - ٩٥٤هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨م) تفسيراً مادياً .. ويعقوب صروف (١٢٦٨ - ١٣٤٥هـ / ١٨٥٢ - ١٩٢٧م) وفارس نمر (١٢٧٢ - ١٣٧٠هـ / ١٨٥٦ - ١٩٥١م) وشاهين مكاربوس (١٢٦٩ - ١٣٢٨هـ - ١٨٥٣ - ١٩١٠م) الذين

بيروت - في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٤١م - إلى سكرتير الدولة بوزارة الخارجية الفرنسية - بباريس - يقول : « إنه حين ننشر في هذا البلد - بواسطة اللغة الفرنسية - التعليم ، والأخلاق ، والفنون .. فإننا سوف نسيطر على الشعب ، وسيكون لفرنسا هنا - وفي كل وقت - جيش متفان » !! ..

وفي مذكرة أخرى - بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٧م - كتبها القنصل الفرنسي «دي لاتينو» De Lattenaud إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، يصرح بأن إنشاء المدارس اليسوعية في الشام هو السبيل إلى «جعل البربرية العربية - (!!؟) - تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية الفرنسية ..»^(١) !! .

ذلك هو حديثهم - هم - عن مدارسهم وثقافتهم وفنونهم .. وعن مقاصدهم من وراء زرعها في المحيط العربي ، بواسطة المارونيين .. فهل يمثل هذا يحتفل يحتفلون ؟!

بل إن هذا «الزرع الفرنسي» في صفوف المارونيين - بالشام - قد تعدت تأثيراته السامة إلى ما وراء الشام . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر

(١) المرجع السابق . ص ٢٧ - وهو ينقل عن [مراسلات القناصل السياسية] - وزارة الخارجية الفرنسية - مجلد ٢ ..

أصدروا مجلة «المقتطف» لتدس الشك
والا أدرية والإلحاد بواسطة النظريات
العلمية الغربية - ذات الخلفية الفلسفية
الوضعية والمادية - كما أصدروا صحيفة
«المقطم» لتكون منبر الإعلام لسياسة
الاستعمار الإنجليزي بمصر ! ..

وعن هذه «المدرسة المارونية» التي تتلمذ
عليها الذين يحتفلون بحملة بونابرت -
يقول ابن مصر البار ، ونموذج الوطنية
الصادقة ، والعالم المجدد عبد الله النديم
(١٢٦١ - ١٣١٣ هـ - ١٨٤٥ /
١٨٩٦ م) : « إنهم الأجراء .. أزداد
مصر والمصريين .. المؤسسين للفتن ..
والمتزدددين على أبواب وكلاء الدول
الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف ..
فاصبحوا لا شرقيين ولا غربيين ،
واتخذتهم أوربا وسائل لتنفيذ آرائها
ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ،
وهي تchettiهم على المثابرة على عملهم
باسم المدنية ، وماهي إلا التوحش
والرجوع إلى الحيوانية المحضة .. لقد
نبئت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبي ،
فانفعلت لها أرواحهم ، فكلما حوكتها

عن وجهتها الغربية دارت إليها ، فهي
قبلة مُصلاها التي وقفت في محرابها
وقوف القانت الواعظ »^(١) !

كما يتحدث النديم عن مجلة
«المقتطف» (١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ /
١٨٧٦ - ١٩٥٢ م) - وهي نموذج ومثال
المجلات التي تتلمذ عليها الذين يحتفلون
اليوم بحملة بونابرت - فيقول عنهم
وعنها : « أعداء الله وأنبيائه ، والأجراء
الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة
لترجمة كلام من لم يدينوا بدين ، ممن
ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر
الطبيعية والتراكيب الكيماوية ،
ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة ،
منكرين وجود الإله الحق . وقد سترؤا
هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية ،
وماهي إلا معاول يهدمون بها عموم
الأديان »^(٢) ! .

أما صحيفة «المقطم» (١٣٠٦ -
١٣٧١ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٥٢ م) ، فلقد
وصفها النديم بأنها «الجريدة الانكليزية
التي تصدر في مصر»^(٣) ! ووصف
أصحابها بأنهم «الأجراء ... الخونة ..

(١) مجلة (الاستاذ) الأعداد الرابع والعشرون ص ٥٦٤ - ٥٦٧ ، والثاني والعشرون ص ٥١٠ ، والسابع عشر ص ٣٨٨ - ٣٩٠ .
القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون ص ٩٢٣ ، ٩٢٤ .

(٣) المصدر السابق . العدد الثاني والأربعون ص ١٠٢٩ .

الاختراق - من خلال الفكر والثقافة،
وفي اللغة والقانون.

فالأمازيغ - الذين يمثلون أكبر
الأقليات القومية في الوطن العربي عددًا -
١٤,٠٠٠,٠٠٠ (أربعة عشر مليوناً)

أي ضعف عدد كل الطوائف النصرانية
العربية الثلاث عشرة - ٧,٠٠٠,٠٠٠
(سبعة ملايين)^(١) حتى وإن لم نأخذ
بالآراء التي ترجعهم إلى أصول عربية
قديمة - قد جمعهم الإسلام بالعرب - في
العقيدة والشريعة والثقافة والحضارة
والتاريخ والقيم والأخلاق والعادات
والتقاليد ... بل لقد نهضوا بدور بارز
في تكوين الدول الإسلامية ، والجهاد
الإسلامي والفتوحات الإسلامية ..
وبسبب من كون العربية لغة القرآن
ولسان الإسلام وسبيل فقه الشريعة
الإسلامية والسنة النبوية ، أصبحت
العربية هي لغة الأمازيغ الأولى ، مع بقاء
لغاتهم القديمة - غير المكتوبة - متداولة ،
تقوم بمقام اللهجات في حفظ الموروث
القومي ، والمخاطبات في بعض الشؤون
الحياتية اليومية الدارجة .

ومع ذلك .. وجدنا مخطط الاختراق

عملاء الأجانب .. الذين خانوا وطنهم
وسلطانهم وأهلهم وخلانهم .. وذلك
عندما داروا حول أبواب الانكлиз ..
وأصدروا جريدتهم لشق عصا الاجتماع
الشرقي»^(٢) .

ذلك هو «الزرع الثقافي الفرنسي»
في الشام .. وهذه هي امتداداته
السرطانية في مصر .. وهي «المدرسة»
التي تتلمذ عليها الفرنكفونيون
المعاصرون الذين يحتفلون بالحملة
الفرنسية ، والزرع الثقافي الذي زرعه
في وطن العروبة وعالم الإسلام .

وعلى الجبهة المغربية أيضًا :

ولا يحسبن أحد أن محاولات
الاختراق الفرنسية لأمنا الوطني والقومي
والحضاري - في الواقع السياسي
والفكري - قد اقتصرت على ثغرات
الأقليات غير الإسلامية - قبط مصر ..
وموارنة لبنان .. واليهود - فلقد عمت
محاولات الاختراق هذه حتى الأقليات
القومية ذات الأصول العرقية غير
العربية .. وكان صنيع الاستعمار
الفرنسي مع المسلمين الأمازيغ - وخاصة
في الجزائر والمغرب - نموذجًا لهذا

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون ص ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٤٥ ، ٩٤٧ ، ٩٣٢ .

(٢) رفيق البستاني ، فيليب فارغ (أطلس معلومات العالم العربي) ص ٣١ ، ٣٤ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٩٤ م .

الفرנקفوني - للاستعمار الفرنسي -
ولغته الفرنسية وقانونه الوضعي ، يتخذ
من الأمازيغ جبهة من جبهات تفكيك
الأمة ، بغزهم عن العرب ، وفصل
إسلامهم عن اللغة العربية ، وقطع
الصلات بين عقيدتهم الإسلامية وبين
الشريعة الإسلامية وفقه المعاملات فيها
وذلك ليربطهم بفرنسا ، وليحل لغته
محل عربيتهم ، وقانونه محل شريعة
الإسلام وقانونها وفقه معاملاتها ..

وعن هذا المخطط الفرנקفوني يقول
الكاتب الفرنسي «فيكور بيكيه» في
كتابه (العنصر البربري) الصادر سنة
١٩٢٥ م : «إننا نشاهد تغلب العربية
في السهول ، حيث السكان العرب ،
وهذا يمكننا تعليله بأن اللغة البربرية لا
تكتب ، وبأن اللغة العربية هي لغة
القرآن ، وقد لعبت «الكتاتيب» دوراً
مهماً في الاستعراب ؛ ولذلك فإن كل
مجهوداتنا يجب أن تصب على تعليم
البرابرة الفرنسية ، بلا واسطة لغة
أخرى. لقد هيأنا سنة ١٩٢٣ للمدرسة
برنامجاً فرنسياً بربرياً له روح فرنسية
كاثوليكية .. وهذه خطة حسنة لوقف
التعامل مع اللغة العربية على أنها لغة
التفاهم ، ويمكننا بسهولة كتابة البربرية
بالحروف الفرنسية ، كما فعلنا بالهند

الصينية .
وإذا لم يمكننا عقد الأمل على رجوع
البربر عن الإسلام ، ونبذهم لهذا الدين ،
لأن جميع الشعوب لا تبقى بدون دين
في مرحلة تطورها ، فيجب أن لا نخشي
من ذلك ، خاصة إذا تمكنا أن نفصل
بين الإسلام والاستعراب .. وفصل
الدين عن القانون المدني ، مثلما حدث
بإدخال تغييرات مهمة سنة ١٩١٧م في
قانون الأحوال الشخصية .. ولذلك
يمكننا أن نحصر الإسلام في الاعتقاد
وحده .. وعلى هذا لا يهمنا كثيراً أن
تضم الديانة الشعب كله ، أو أن آيات
من القرآن يتلوها رجال بلغة
لا يفهمونها . فالديانة الكاثوليكية
تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية
والعبرانية في قدايسها ... !

فهذه المخطط الفرانكفوني -
لنفيت الأمة ، من باب الثقافة - هو :
علمنة الإسلام ، وفرنسة اللغة ، لإحلال
القانون الفرنسي محل الشريعة
الإسلامية ، وفقه معاملاتها ، وإحلال
الفرنسية محل العربية ، وبذلك تندمج
الأعراف البربرية في القانون الفرنسي ،
ويصبح الأمازيغ فرنسيي اللغة .. أي
يتم دمجهم في الثقافة الفرنسية دمجاً
تاماً !.

وليسست هذه الثمرات والمقاصد بالاستنتاج الذي نستنتجه نحن .. وإنما هي اعترافات الأستاذ الفرنسي للحقوق في معهد الدروس العليا - «بالرباط» «جورج سوردون» - بكتابه (مبادئ الحقوق العرفية المغربية) الصادر بالرباط سنة ١٩٢٨م - والذي يقول فيه :

«يجب جمع العادات البربرية .. لثلا تضمحل في الشرع الإسلامي .. إذ العرف ينمحي إزاء القانون .. والأولى أن نرى العرف البربري يندمج في القانون الفرنسي من أن نراه يندمج في القانون الإسلامي ؛ لأن الأسلحة الفرنسية هي التى فتحت البلاد العربية ، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في هذه البلاد » !

فهل يعي ويفهم الفرنكفونيون ، الذين يزعمون أنهم إنما يحتفون ويحتفلون بثقافة فرنسا لا بمدافعها .. هل يعون المعنى الواضح لكلمات «جورج سوردون» والتى تقول : إن الأسلحة الفرنسية إنما استخدمت لتطبيق القانون الفرنسي في البلاد العربية .. فـقانون نابليون هو الثمرة لمدافع نابليون!!

وهذا الذي كتبه «الاساتذة» و «الكتاب الفرنسيون» هو ذاته الذى طبقته السلطة الاستعمارية الفرنسية .. فالمقيم العام الفرنسي - بالمغرب - المارشال «ليوتي» يصدر أوامره إلى وزارة العدل باستبعاد اللغة العربية ، وفك ارتباطها بالإسلام ، لدمج البربر في فرنسا - عن طريق اللغة الفرنسية والقانون الفرنسي - فيقول في أوامره : «إنه لخطأ فاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين العرب والبربر ، ولا حاجة في تعليم العربية للبربر ، فالعربية هي رائد الإسلام ، لأن هذه اللغة تُعلّم من القرآن ، ومصلحتنا هي أن نمدن البربر خارج دائرة الإسلام ، وأما ما يتعلق باللغة ، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة ..»^(١) .

تلك هي مخططات الاختراق الفرنسي لأمننا الفكرى والثقافى - في الدين والدنيا - على المستوى الوطنى والقومى والحضارى .. فأين ياترى هذه «الثقافة المجردة» الخالصة من شبهات الغزو والحرب التى يحتفل بها

(١) د. محمد عمارة (الإسلام والتعددية : التنوع والاختلاف في إطار الوحدة) ص ٢٧٦ - ٢٧٨ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٩٧ م.

الفرنكفونيون ١؟ ..

وخرافة المطبعة .. والمجمع العلمي :

وإذا كنا قد كشفنا خرافة الإنجازات السياسية والإدارية والديمقراطية التي يزعم الفرنكفونيون أن بونا برت قد أدخلها إلى مصر - بما أنشأ من «ديوان المشورة» عندما كشفنا - نقلا عن الجبرتي - أن هذه المؤسسات كانت أداة القمع الفرنسي ، التي غلب في عضويتها «أراذل القبط» و «النصارى الأروام» الذين خانوا وطنهم مصر - فإن مزاعم الفرنكفونيين حول «المطبعة» التي جاء بها بونا برت إلى مصر .. وكذلك المجمع العلمي المصري الذي أسسه بيلادنا .. إن هذه المزاعم هي ألوان من الخرافات التي لا أصل لها في التاريخ .

فبونا برت - وهو في طريقه إلى مصر- «أحضر معه مطبعة «البروباجندا» من إيطاليا ، لطبع بها بيانات التضليل للشعب المصري ، تلك التي زعم فيها أنه مسلم أكثر من المماليك ، ونصير لخليفة المسلمين ، على عكس المماليك! .. «ثم خرجت هذه المطبعة من مصر بخروج الحملة الفرنسية»^(١) فلم يكن

لها أي أثر ثقافي يبرر احتفال الفرنكفونيين ! ..

أما المطبعة التي نهضت بالدور الريادي في ثقافة مصر العربية والإسلامية - مطبعة بولاق - الأميرية فهي التي فكر محمد علي باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ / ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م) في إنشائها (١٢٣٠ هـ - ١٨١٥ م) واشتراها من مال الدولة المصرية ، وبدأ إنتاجها - على الأرجح (١٢٣٥ هـ - ١٨٢٠ م)^(٢) وهي مطبعة وطنية .. أميرية .. قامت في بولاق .. ولا علاقة لها بمطبعة «البروباجندا» التي جلبها نابليون من الفاتيكان ؛ ليضلل المصريين بمنشوراتها . فهل يحتفل الفرنكفونيون بمطبعة «البروباجندا» وما صدر عنها من أذليل؟! .

أما المجمع العلمي المصري الذي يزعم الفرنكفونيون أن نابليون قد أسسه ، فإنه هو الآخر - خرافة من الخرافات .. فالبعثة العلمية الفرنسية التي صحبت جيش الحملة البونابرتية ، قد جاءت لتدرس الواقع المصري ، حتى يستطيع الغزاة حكمه .. ولتدرس

(١) د. جمال الدين الشيال (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي) ص ١٩٥ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

سنة ١٩٣٨ م :

«لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب
مذهبها في الحكم ، ونسير سيرتها في
الإدارة ، ونسلك طريقها في التشريع ،
التزمنا هذا كله أمام أوروبا ، وهل كان
إمضاء معاهدة الاستقلال (١٩٣٦ م) -
ومعاهدة إلغاء الامتيازات (١٩٣٨ م) -
إلا التزاما صريحًا قاطعًا أمام العالم
المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في
الحكم والإدارة والتشريع»^(١) .

ولقد بدأ هذا الإلزام بحملة
بونابرت.. وما أحدثته من اختراقات
لأمننا الوطني والقومي والحضاري في
الفكر .. والثقافة .. والقيم .. والتشريع
واللغة .. والأخلاق .

ويشهد على ذلك أيضًا
الفرنكفونيين الذين يحتفلون بهذا
الاختراق البونابرتي إنما يصنعون ذلك
لأن ثقافتهم هي عين ثقافة هذا
الاختراق .. فهم امتدادات سرطانية لهذا
الاختراق الذي به يحتفون ويحتفلون !..
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
لكن العزاء هو في رفض الأمة
الانحدار الذي سقط فيه خلفاء المعلم
يعقوب اللعين !



الشخصية المصرية ، حتى يسهل على
المستعمرين السيطرة عليها .. ثم
انسحبت هذه البعثة - مع جيش
الاحتلال (١٢١٦هـ - ١٨٠١م) .. ولا
علاقة لهذه البعثة الفرنسية - التي
واصلت أبحاثها بعد الجلاء في فرنسا -
لا علاقة لها بالجمع العلمي المصري على
الإطلاق .. فالجمع العلمي المصري هو
بجمع وطني ، قام في سنة ١٨٥٩ على
عهد الخديوي سعيد (١٢٧٠ -
١٢٧٩هـ - ١٨٥٤ - ١٨٦٢م) أي بعد
ما يقرب من ستين عامًا على جلاء
الحملة الفرنسية والبعثة العلمية الفرنسية
التي صحبتها !! ..

فبأي مطبعة .. وبأي مجمع يحتفل
الفرنكفونيون ؟!

وبأي ثقافة يحتفون ؟!

لقد كان الدكتور طه حسين
(١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ - ١٨٨٩ -
١٩٧٣م) شجاعًا ، عندما اعترف في
لحظة صدق مع واقع التغريب - بأن
التبعية الفكرية لأوروبا هي « إلزام » أكثر
منها « التزام » .. فقال في كتابه
(مستقبل الثقافة في مصر) الذي ألفه
عقب معاهدة سنة ١٩٣٦ م - بين مصر
وإنجلترا - ومعاهدة الامتيازات الأجنبية

(١) (مستقبل الثقافة في مصر) ج١ ص ٣٦ ، ٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ .